الفصل الحادي عشر

بيت داود

كان الصراع الكبير سنة 1187م صراعاً بين دينين. كان صراعاً بين مبدأ الإيمان بالإله الواحد القادر، الله ـ في مواجهة الآب ذي الثلاثة الأقانيم، الثالوث المقدس. بين تمثال الصليب، والصخرة، من حيث عُرج بالنبي محمَّدٍ (صلى الله عليه وآله وسلم) إلىٰ السماء ـ وبين كنيسة القيامة والمسجد الأقصى. لكنْ: ماذا عن اليهود؟ أليست القدس مقدَّسةً بالنسبة لهم أيضاً؟ إنها قدس الأقداس. إنها الجبل، موطن الهيكلين التوراتيين الأول والثاني. إنه المكان الذي أعدّه إبراهيم ليفيَ فيه نذره، بذبح ابنه، إسحق فيه[1]. وهو صهيون، قلب أو وسط دائرة إيمانهم. وهو المكان الذي كانت فيه السكينة، أي الحضور الإلهي واقعةً محقَّقةً عندهم. مكان الهيكل الذي دُمّر للمرة الثانية على يد الإمبراطور الروماني تيطس سنة 70م. وبسبب جاذبيته الهائلة؛ فإنّ ربّانيي

(1) هذا الفصل مُشكلٌ في اعتباره الصراعَ بين الصليبيين والمسلمين صراعاً دينياً حول مفاهيم لاهوتية، وفي رؤيته في السياق نفسه لموقع القدس في الديانة اليهودية، ولدى اليهود. ولا علاقة للموضوع في الحقيقة ببنية الكتاب لأنّ اليهودَ آنذاك ما كانوا طرفاً في الصراع. وقد سمح صلاح الدين لهم بالعودة للسكن داخل أسوار القدس التي كان الصليبيون قد أخرجوهم منها كما يظهر في هذا الفصل بالذات.

المدينة يحتكرون شعائر روزنامة تحديد الأوقات، وتواريخ الاحتفال في الدياسبورا. المكان الذي يكون لليهود فيه الحق في الموت وفي الحياة. وإشارةً إِلىٰ قوة الرمز يقول شاعرٌ يهوديٌّ من القرن الثاني عشر الميلادي:

في حدود الغرب حيث كنتُ كأنما نزل بي الموت
إِلىٰ أن بُعثتُ في صهيون مدينة الله
صهيون! هناك مُدُنٌ رائعة
لكن مثل روعتك ما رأت عين
ولستُ أدري ما إذا كانت الجبال لا تنحني لها
أَو أنها هي التي تمتطي متن السحاب.

كان فرسان الصليب القادمون إِلىٰ القدس بالنسبة لليهود مثل الغربان في الملاحم الأخيرة الداخلة في علامات القيامة والدينونة. وكانت أخبار الاضطهادات ضد اليهود في منطقة الراين وفي وادي الدانوب، قد سبقت الحرب الصليبية الأولى، وانتشرت الشائعات حولها في الشرق الأوسط. وعندما وصل الغربيون، كان الإحساس بالخطر، والاستعداد الفاجع للشهادة عميقين. وقد أراد بعض الرجال المقدَّسين اعتبار ظهور المسيحيين في الشرق أمارةً على ظهور المسيح (اليهودي). فهناك مسيحيون كثيرون اعتبروا الأراضي المقدسة موطناً تمهيدياً، وستظهر إرادة الله بعد ذلك فوراً، كما في (ميخا 4: 13): «قومي دوسي يا بنت صهيون، فإني أجعلُ قرنَكِ حديداً، وأظلافكِ نُحاساً فتسحقين شعوباً كثيرين، وأُبْسِلُ للرب غنيمتَهم وثروتَهم لسيّد الأرض كلّها».

كان وصول أولئك القُساة المتوحشين، المتعصبين المملوئين بالكراهية،

إيذاناً بنهاية الزمان، في حساباتهم. فقد مرت ألف سنةٍ منذ أمر تيطس بتدمير الهيكل. فهل يكون حملةُ الصليب هؤلاء، الذين ينشدون الأناشيد الدينية، ويطالبون بالثأر، تنفيذاً لنبوءة مملكة الألف سنة؟ هل جاء اليومُ ـ في كلمات أشعيا ـ الذي سوف يصغي فيه الله إلىٰ الذبابة في أقصى أنهار مصر، والنحلة التي في بلاد أشور؟! قال يهودي: «لقد رأيتُ فرق الأشكنازيم، تتحرك جماعات، ولستُ أدري إلى أين يذهبون. لكنْ عندما احتلّ الصليبيّون القدس من خلال الثغرة في الأسوار سنة 1099م تدفق الفرسان المسيحيون أولَ ما دخلوا إلىٰ الحيّ اليهودي للمدينة المقدَّسة، فكان اليهود أول ضحاياهم. كان يعيش في الحي اليهودي زُهاءَ المائتي إنسان على مقربةٍ من برج داود. وينهمك فرسان المسيح الآن بعد قتلهم، باللهو والرقص من حول كنيسِهم، وهو احتفالٌ مليءٌ بالضحك والرقص والسخريات الهزلية». وخلال المائة سنة التالية عاشت الجماعات اليهودية بشبه خفاءٍ في أماكن مثل الجليل وعكا، ولكنْ ليس في القدس. وقد أصدر الفرسان المسيحيون مراسيم منعوا بموجبها اليهود من العيش داخل أسوار المدينة؛ على الرغم من أنّ بضع مئاتٍ من اليهود كانوا يشاركون في صناعة الجلود والأقمشة؛ لكنهم كانوا يحيون خارج الأسوار. وفي كل مكانٍ ما كانت أعدادُهم كبيرةً أَو عالية. وفي أواسط القرن الثاني عشر كان أربعمائة يهودي يعيشون في صور، ويعملون في صناعة الزجاج والسفن. وفي أماكن مثل الخليل والرملة وبيت لحم وبيت جبرين، فإنّ أعدادهم ما كانت تتجاوز أصابع اليد الواحدة. وبإيجازٍ يمكن القول إنّ عدد اليهود في المملكة الصليبية كلّها ما كان يتجاوز الألف نسمة. وكانوا فقراء ومنعزلين؛ أما الأوروبيون المحتلون فكانوا يعتبرونهم ملاعين قلباً وقالباً. كتب مطران عكا عن اليهود قائلاً: «لقد صاروا ضِعافاً، ويخشون الحرب مثل امرأة»، وتابع: «ويقال إنهم يعانون من نزيفٍ دمويٍ كلَّ شهر. لقد ابتلاهم الله في سائر الأمور، وأورثهم عاراً دائماً. أما العربُ الذين يعيش هؤلاء في أوساطهم فإنَّهم يكرهونهم ويحتقرونهم أكثر مما يفعل المسيحيون. إنهم يمارسون العمل

التجاريّ بأيديهم في أسوأ المِهَن وأحقرها. ومع ذلك فإنّ العرب لا يقتلونهم؛ بل إنما يفعلُ ذلك المسيحيون؛ لأنّ الله يحفظهم مثل جذعٍ خارج الغابة، ليجري إحراقُهُ بعد ذلك في الشتاء. إنهم يذكّروننا بموت المسيح».

في كل مكانٍ آخر في الشرق الأوسط، وبخاصةٍ في العراق، كان اليهود مشهورين، وكانت أعدادهم كبيرة، كما كانت أوضاعهم الاجتماعية حسنة. وقد تميزوا بحرَفٍ مثل صناعة الذهب وإنتاج وتطريز الحرير، والإقراض وصرف العملة؛ وكانوا الفئة التي سادت التجارة بين آسيا وإفريقيا وأوروبا. وكان يعيش بدمشق ما يزيد على الثلاثة آلاف يهودي وألفين في تدمر. وكانت بغداد مقرَّ رأس اليهود (رأس الجالوت) في الدياسبورا؛ الذي كان يعتبر نفسه متحدراً من نسل داود، وكان يتجول في المدينة بثيابه الحريرية، وأمامه الخدم والحشد يفتحون له الطريق بين صفوف الناس، ويصيحون: «سيدنا، ولد داود». أما في أقصى الشرق في سمرقند فقد كان اليهود يبلغون الخمسين ألفاً في العدد. وفي إسكندرية مصر كان هناك ثلاثة آلاف يهودي؛ وبالقاهرة ألفا يهودي؛ يتعبدون في كنيسين، وعندهم رئيسٌ تعترف السلطة الإسلامية بشرعيته. ولهذا فإنّ علاقة اليهود بفلسطين وبالقدس وبيهود الشرق كانت عاطفيةً وليست عملية. أما في مملكة صلاح الدِّين؛ فإنّ اليهود وإن لم يكونوا مساوين للمسلمين تماماً؛ فإنهم كانوا مقبولين اجتماعياً وسياسياً، ويتمتعون بالتقدير. وهم يدخلون جماعةً ضمن «غير المسلمين»، وقد وجدوا أنفسهم مجموعين مع المسيحيين (ضمن «أهل الكتاب»). وهؤلاء الذميون (من ذمة، وتعني عهداً واتفاقية للحماية)، كما كانوا يسمون؛ كانوا معتبرين رعايا للدولة. أما وجوه الإذلال التي كانوا يعانونها فليست شديدة الوضوح. ما كان مسموحاً لهم بركوب الخيل والبغال، بل دائماً الحمير. وهذه القاعدة وُضعت لتمييز الذين يعملون في مجال الطب أَو خدمة السلطان والدولة. وكان عددٌ من الأطباء يطبب صلاح الدِّين نفسه. وبشكلٍ عام فقد كان مسروراً بعناية أولئك الرجال العلماء به؛ باستثناء مرةٍ واحدةٍ عندما

وصف طبيبٌ يهوديٌّ له الخمر باعتبارها دواءً؛ وكان مرض السلطان مغصاً معوياً. ولأنَّ الخمر محرَّمةٌ فإنّ السلطان تجاهل وصفة الطبيب. ولذلك فقد كان طبيعياً أن يكون بين أوائل مناشير صلاح الدِّين بعد فتح القدس، دعوة اليهود للعودة إِلىٰ المدينة المقدسة. وقد كان بوسعه التذكر بطريقةٍ عاطفيةٍ حقيقة أنّ اليهود كافحوا إِلىٰ جانب المسلمين دفاعاً عن المدينة في مواجهة الحملة الصليبية الأولى قبل تسعة عقود. كان صلاح الدِّين يرغب بالعودة بالمدينة إِلىٰ أوضاعها السابقة قبل الغزو الغربي، وذلك يعني إعادة تكوين المجتمع المتنوع قبل الغزو الصليبي: «ليعد قلبكِ في حياةٍ جديدة. وكل براعم أفراييم الموعودة يمكن أن تتفتح، شأنها في ذلك شأن أخواتها في الموصل ومصر. ولتصل الأطياب المتضوعة، والداعية للعودة إِلىٰ أقاصي الأرض. فلتأت من كل صوب البراعم، ولتتجمع داخل حدودها». تلك الأبيات هي التي أنشدها الشاعر اليهودي يهودا الحريزي متذكراً منشورَ صلاح الدِّين، والفرح الذي انتشر خلال عالم الدياسبورا. فمن جميع أجزاء الشرق الأوسط، ومن المغرب، ومن أماكن أخرى، تدفقت جماعاتٌ إِلىٰ فلسطين، وإِلىٰ المدينة المقدَّسة. وتأسس حيٌّ يهوديٌّ جديد في جنوب القدس.

إذا كان انفتاح صلاح الدِّين نبيلاً؛ فإنه كان أيضاً عملياً. فباستثناء الجنود المسلمين الفاتحين، كانت القدس مدينة أشباحٍ يومَها. فالساحة الرومانية كانت مقفرة. وأسواق الأفاويه والتوابل والملابس فارغة. وكذا الأمر بالنسبة لأسواق الأطعمة ذات الرائحة النفّاذة، وأسواق الدباغة والمشغولات والصناعات والحرف الأخرى. فإذا كان يُرادُ إعادة الحياة إِلىٰ المدينة فإنها محتاجةٌ إِلىٰ إمدادٍ بالمواطنين بسرعة. وقد عانى الصليبيّون سنة 1099م من المشكلة نفسها. إذ بعد المذابح التي ارتكبوها ضد المسلمين واليهود، صارت المدينة قليلة السكان إِلىٰ حدّ القول إنّ شارعاً واحداً فيها كان مسكوناً. وقد بذل الصليبيّون جهوداً مضنية لاستجلاب مسيحيين قيل إنهم كانوا مضطَهَدين في البلاد العربية. وكذا الأمر

عندما استعاد المسلمون الرُّها سنة 1144م أيام سلف صلاح الدِّين (عماد الدين) زنكي؛ فقد استجلب زُهاء ثلاثمائة عائلة يهودية إِلىٰ المدينة، لكي يعوِّض عن نقص السكان برحيل الصليبيين. صار السلطان صلاح الدِّين بحركته تلك بطلاً لدى اليهود. فمن أجلهم حَنَّن الله قلب السلطان. وقد كافأه الله على حنانه؛ فهو قد حاصر القدس، والله سبحانه فتحها على يديه.

بقي صلاح الدِّين شهراً في القدس، يشرف على تنظيم الأمور بعد الفتح. وقد تجنّب القصور المهجورة الكثيرة، واتخذ لنفسه مقاماً في الخانقاه الصوفية التي أُنشئت باسم الله الرحمن الرحيم؛ ليست بعيدةً عن كنيسة القيامة. وبدلاً من الانصراف للاحتفالات ومجالس الشراب، انصرف صلاح الدِّين لاستقبال الناس في مقره المكوَّن من غرفتين، ولا تسع الواحدة منهما أكثر من ستة أشخاص. لكأنما أراد بذلك أن يتجنّب عن عمد إغراءات الانتصار العسكري، والفساد الذي يمكن أن يحدُثَ بعد الأمجاد.

عمل صلاح الدِّين بعزيمةٍ على ترميم الأسوار وتقويتها، وتوسيع الخنادق، في الوقت الذي تواصلت فيه جهوده لإعادة الطابع الإِسلامي للمدينة. أما الأموال التي حصلها من تحرير المسيحيين فقد أنفقها على الجند والأُمراء والفقهاء والرجال الصالحين والدراويش. وبأمرٍ من السلطان، أُخذ مقر البطرك في الجانب الشمالي الغربي من كنيسة القيامة، وأُعيد إِلىٰ الدراويش الذين اتخذوا منه مقاماً ومصلًى. ومن جهتهم، فإنَّ الدراويش سموا مقرهم باسم السلطان: الخانقاه الصلاحية. وفي الجانب الشرقي من المدينة، ليس بعيداً عن باب جهنّم، من حيث دخل المسيح القدس على حمار، اقتنى صلاح الدِّين إحدى أجمل كنائس الصليبيين (كنيسة القديسة حنة) وحوَّلها إِلىٰ مدرسةٍ للدراسات المتقدمة في الفقه الإِسلامي وعلم الكلام. وسمّيت هذه المدرسةُ باسمه أيضاً: المدرسة الصلاحية. وعندما نُظّف مقرّ فرسان الهيكل في باحة المسجد الأقصى، وأُعيد إِلىٰ طبيعته الأصلية؛ فإنّ صلاح الدِّين حوّله إِلىٰ

مدرسةٍ ومصلَّىٰ بعد أن كان مستشفىً قبل الغزو الصليبي. اعتبر صلاح الدين أنّه لا وقتَ للراحة. وكان مستشاروه يلومونه. فقد كانت خزائنه فارغةً لإسرافه في الإنفاق، وتبذيره للأموال المكسوبة من افتداء الصليبيين. وضغط عليه مستشاروه وضبّاطه لاستمرار الكفاح لاستعادة المدن الساحلية، قبل أن يتبدد شمل الجيش. إنّ المسيحيين لن يرفعوا أيديهم عما احتازوهُ إلاَّ إذا قُطعت تلك الأيدي، كما يقول أحد المستشارين. ثم إنّ سيرة صلاح الدِّين (لابن شداد) تتساءل أيضاً حول كرمه؛ ولنتأمّل هذه الفقرة لابن الأثير[1]:

«إنّ صلاح الدين هو الذي جَهَّز إلىٰ صور جنودَ الفرنجة وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس.. كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلىٰ صور، فصار فيها فرسان الفرنج بالساحل... أفلا يمكن القول إنّ صلاح الدِّين نفسه هو الذي نظّم دفاعَ صور ضدَّ جيشه؟!».

في 30 تشرين الأول/ أكتوبر خرجت فِرَق الإسلام أخيراً من بيت المقدس، (واتجهت لإكمال الفتوحات).

(1) الكامل لابن الأثير 11/ 203 ـ 204، و12/ 23. وقارن بأمين معلوف: الحروب الصليبية كما رآها العرب، ص ص 255 ـ 256.